سركوح، عثمان، « التاجر أحمد بولعراف التكني ودوره في مد جسور التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء»، **المجلة الأفريقية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، العدد الأول، 2021، ص. 89-102

التاجر أحمد بولعراف التكني ودوره في مد جسور التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء

سركوح عثمان، باحث، جامعة محمد الخامس، الرباط

تقديـــم

شكلت الصحراء، على مر العصور جسرا للتواصل مع بلاد السودان الغربي[66]، فقد ارتبطت هذه الأخيرة منذ عهود مبكرة بعلاقات وصلات تجارية مع الصحراء، كان لها تأثير على المنطقة من عدة جوانب حضارية واقتصادية واجتماعية وثقافية واستمرت العلاقات مع بلاد السودان الغربي في ازدهار وازداد التواصل بين ضفتي الصحراء على مر العصور اللاحقة.

وقد كان لدخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي الأثر الكبير في طبيعة العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها حيث لعبت الصلات التجارية دورا مهما في توسيع شبكة الاتصالات بين الجانبين، ومن خلالها وجد الإسلام طريقه إلى بلاد السودان.

ومن خلال هذا التواجد حدث تأثير وتأثر واضحين في النواحي الحضارية كافة؛ ويكفي دلالة على ذلك وجود أسر صحراوية أسهمت في ازدهار الحياة الاقتصادية بالسودان الغربي، هذا فضلا عن بعض الجهود الفردية لتجار تكنيين مثل أحمد بو لعراف[67]، الذي لم يكن دوره اقتصاديا فقط وإنما كان له دور في الحياة الاجتماعية والثقافية لحاضرة تومبكتو.

وإذا كانت التجارة الصحراوية قد حظيت باهتمام الدارسين، فإن الجانب المتعلق بدورها في نقل المؤثرات الثقافية من شمال الصحراء إلى ضفتها الجنوبية لم يحض بقدر كبير من الاهتمام، وهو ما سنتطرق له من خلال هذا المقال الذي سنحاول فيه استجلاء أهمية العنصر البشري في مد جسور التواصل الحضاري بين الصحراء والسودان الغربي من خلال إماطة اللثام عن فئة التجار، محاولين التقاط ما أمكن من أدوارهم بهدف الحصول على صورة نابضة عن تأثير هذه الفئة في مجتمعات السودان الغربي إضافة إلى الوقوف على بعض مؤشرات تعاملاتهم الاقتصادية وإبراز الصلات والتفاعلات، وبالتالي فإن تخصيص دراسة لهذه الشريحة سيمنحنا فرصة التعرف على بعض جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالسودان الغربي.

---

[66]- يطلق اسم السودان الغربي على النطاق الفاصل ما بين الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى ومقدمة الغابة الاستوائية، وبذلك فالسودانيون يشغلون -تقريبا- المجال المنحصر فيما بين خطي عرض 11 و 17 درجة شمالا، فيما شكل المحيط الأطلنتي حدا طبيعيا من جهة الغرب، ويمتد مجال انتشار السودان شرقا إلى غاية بحيرة كوري (التشاد) وهوامشها الشاطئية. أحمد الشكري، مادة السودان الغربي والمغرب، معلمة المغرب، المجلد 15، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2002، ص 5150.

[67]- نرى أنه من المفيد البحث في المسيرات الفردية والجماعية للتجار كونها تصلح لتكون مجهرا لدراسة هيكلة التجارة الخارجية.

أين تتجلى مظاهر الحضور التجاري التكني بالسودان الغربي؟ وما هو الدور الذي لعبه هؤلاء التجار في مد جسور التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء؟

أولا: مظاهر وآثار الحضور التجاري التكني بالسودان الغربي

لعب التجار دورا أساسيا في نشر الدعوة الاسلامية في جنوب السودان الغربي، فالتجار المغاربة عملوا في التجارة وتعاملوا مع التجار الأفارقة، ونظرا لاتصالهم بشكل مباشر مع المجتمع فقد كان لهم فضل كبير في نشر تعاليم الاسلام والاسهام في التلاقح الحضاري ما بين شمال إفريقيا وغربها، وتعود بدايات العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار السودان الغربي إلى القرن (3-5هـ/9-11م)، ومنذ هذه المدة ظهرت الحركة التجارية بين شمال أفريقيا والسودان الغربي ومن الطبيعي أن هذه التجارة كان لها التأثير على المجتمع السوداني.

ونشطت حركة التجار في مدن إفريقيا الغربية كدكار وتمبوكتو وولاته إلخ... وذكر ابن بطوطة عند زيارته لمدن مالي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أن التجار العرب المسلمين كانت لهم علاقات طيبة مع الطبقة الحاكمة في مالي وصلت الى درجة المصاهرة مع الحكام[68]، واتخذوا الأقطار والحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الإماء[69]، وأصبح التجار يتواجدون في جميع أسواقها الأمر الذي عزز من العلاقات والتأثيرات، وانعكاس ذلك على أحوال المجتمع بجنوب الصحراء إيجابيا.

وأصبحت هذه المدن مركزاً رئيساً للتجارة، لارتباطها مع الحركة التجارية في المشرق، والحركة التجارية في الشمال الإفريقي، وهكذا أصبحت المراكز التجارية منتديات أدبية وثقافية ودعوة للأفكار الإسلامية، فكان للتجار والدعاة والفقهاء معرفة وإلمام في الإدارة والسياسة، فعملوا مترجمين ونساخ ووزراء لمعظم حكام السودان، إضافة إلى ذلك وضعوا أسس لحكم بلدان السودان الغربي معتمدين على الأحكام الشرعية، التي بنيت عليها الدولة الإسلامية، ولما يتصف به التجار والدعاة المسلمين من سلوك وأخلاق حميدة، ولخبرتهم السياسية والإدارية، فكانت تلك الصفات عامل جذب تجاه الملوك، ودخولهم البلاط الملكي والعمل به،وأصبحوا رجال دولة لا يمكن الاستغناء عنهم في تمشية أمور وإدارة الدولة[70].

ولم يتوقف تأثير التجار في نقل الإسلام وتعاليمه السمحاء من المغرب إلى إفريقيا الغربية، بل تعداه إلى تأثيرات في التقاليد الاجتماعية وفي الحركة العمرانية وذكر البكري في وصفه للمدن التي تتحلى بالمآثر الإسلامية من مساجد ومآذن ومدارس، حيث يقول: "مدينة غانا مدينتان محليتان أحدهما المدينة الإسلامية التي يسكنها المسلمون وهي المدينة الكبيرة فيها أثنى عشر مسجداً، أحداهما يجتمعون فيه لاستماع الجلسات الدينية وله أئمة ومؤذن وفيها فقهاء ومن حملة العلم والمعرفة"[71]، وهو ما يظهر في مدى تأثير مجتمعات الغرب الإفريقي بالتقاليد والثقافات المغربية وما اخذوا من

[68]- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة التجارية، مصر، 1964، ص 78.

[69]- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، الجزء 5، 2011، ص 205.

[70]- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 147.

[71]- أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 170.

علوم في الأدب والتاريخ والفن وغير ذلك، لقد كانت التجارة إحدى قنوات وأدوات تمرير القيم والأفكار الثقافية، ما ساعد على ظهور ما يسمى بالتراث المغربي الإفريقي المشترك.

وقد استفاد التجار التكنيون من التواجد اليهودي بوادي نون وحيوية النشاط الحرفي الذي كانوا يمارسونه، وكذا العلاقات المتميزة التي كانت تربطها بالصويرة، الأمر الذي مكن تجارها من مواد شكلت أساس المعاملات التجارية التي اعتمدوا عليها في غزو الأسواق البعيدة، فكانت منطقة السودان الغربي سوقا مغريا بالنسبة لهم ليؤسسوا بها مراكز تجارية وحرصوا على التعامل معها ما ترتب عنه توسيع شبكتهم التجارية وتنوع بنياتها، وقد حرص التجار التكنيون على نسج علاقات تجارية مع مختلف بلدان غرب إفريقيا، كالسنغال ومالي التي راهن عليها تجار وادي نون كثيرا، ويعزى تواجدهم بهذه الدول إلى رغبة هؤلاء التجار في إقامة مشاريع تجارية وربط شمال الصحراء بجنوبها.

وبالرغم من قلتهم فقد كانت لهم بصمة واضحة في المجال التجاري حيث يشير الباحث الموريتاني أحمد مولد ولد أيده هلال إلى "أن استقرار تجار من قبيلة تكنة بشنقيط وافدين من وادي نون كان لهأثر طيب في إدخال مناهج جديدة في المعاملات التجارية، مما سمح بالازدهار التجاري لشنقيط خلال القرن 13ه/19م"[72]،ومنها على سبيل المثال المقاييس والموازين والمكاييل، كما كان لهم تأثير واضح في تنظيم الأسواق، حيث كانت هذه الأخيرة لا تنعقد إلا بحضور الأمناء والموثقين والمترجمين الذين يتم تعيينهم بالمراكز التجارية السودانية الكبرى مثل تمبكتو وجني وكاو، وذلك قصد الإشراف على التجارة واستخلاص الواجبات بها[73].

وقد تمكن تجار تكنة بفضل ديناميتهم في أسواق الصحراء والسودان من ترسيخ صورة التاجر الذي يوفر السلع الضرورية للرحل، ودعمت بفضل السياسة السلمية التي انتهجها التجار التكنيون الذين ابتعدوا، ما أمكنهم عن الصراعات القبلية التي كانت تنشب في الصحراء، على خلاف قبيلة أولاد بسبع، أبرز منافسيهم، الذين انخرطوا في صراعات مريرة مع قبائل مما أثر سلبا على مصالحهم التجارية[74].

لقد تعددت مظاهر تأثير التجار التكنيين في حضارة أهالي السودان الغربي إلى مجالات أخرى نذكر منها الأطعمة، وفنون الطبخ، والمعمار حيث كان البناء والطراز المغربي نموذجا يحتذى به، إضافة إلى السلع الاستهلاكية التي روجوها بالأسواق الإفريقية مثل السراويل وأغطية الرأس والبرانيس والجلباب، وتعد الكتب من بين السلع التي كانت تلقى رواجا في أسواق السودان، وقد اختص أحد تجار تكنة وهو أحمد بلعراف في هذه التجارة[75]، التي أسهمت دون شك في الحركة الفكرية في السودان

---

[72]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، **مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتةوودان وتيشيت وشنقيط**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2014، ص 219.

[73]-Monteil Charles, *Une cité soudanaise Djenné, métropole du delta central du Niger*, Société d'Editions Géographiques, Maritimes et Coloniales, Paris, 1932, P 62

[74]- Ghislaine Lydon, *On Trans-Saharan Trails Islamic Law, Trade Networks, and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth-Century Western Africa*, Leiden ; Boston, Brill, 2012, p. 194

[75]- لقد اختص هذا التاجر بمسيرة حافلة وفريدة من نوعها، حيث كان للكتاب دور مهم في تراكم الثروة والمعرفة لدى أحمد بو لعراف للمزيد حول الموضوع أنظر:

Shamil Jeppie, « A Timbuktu bibliophile between the Mediterranean and the Sahel: Ahmad Bul'arāf and the circulation of books in the first half of the twentieth century », *The Journal of North African Studies*, Vol 20, N° 1, PP 65-77

الغربي وتحديدا في تمبكتو، التي أسس بها أحمد "المكتبة الرئيسية" وحرص على تزويدها بالكتب والمخطوطات[76] طوال نصف قرن ونيف (من سنة 1907 إلى سنة 1955 تاريخ وفاته)، وقد بلغ محتوى مكتبة بو لعراف أزيد من 6039 كتابا و 2075 مخطوطا[77].

ثانيا: التاجر أحمد بولعراف [أبو الأعراف] وجهوده في مد جسور التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء

قبل الدخول في دراسة النشاط التجاري لبو لعراف نورد الترجمة التالية لتقديم نظرة متعددة الزوايا للشخصية التي نتناولها وهو ما يتيح لنا تصوير الطريقة التي حدث بها التداخل مع مختلف شرائح المجتمع من تجار وعلماء، ومستوى معاملات شبكته التجارية.

1. ترجمته

وهو أحمد بن امبارك بن برك[بركة] بن محمد، الملقب "بلعراف"[أبو الأعراف أو بولعراف][78]،الموسوعلي عشيرة، التكني قبيلة، الجليميمي [الگلميمي] منشأ ومولدا[79]،ولد هذا العلامة عام 1280ه/1864م بكلميم[80]، وأمضى أول فصول حياته بها حيث تربى في كنف حضرة والده فكان أول من تلقى على يده عدد من العلوم قبل أن يستأنف التكوين ويتدرج فيه على يد مجموعة من الأشياخ، على رأسهم الشيخ محمد يحيى بن سليم، وتميّز منذ صغره بذكاء حاد، وتفكير واسع واجتهاد كبير في طلب العلم، ، فختم القرآن الكريم في صغره، كما درس مبادئ الحديث، والفقه، والنحو، والحساب، وعلم المنطق، وغيرها من العلوم[81].

ولما بلغ سن العشرين ضرب أكباد إبل الرحلة العلمية طلبا للاستزادة والإجازة في ذلك فدرج إلى محاضر شنقيط طلبا للعلم حيث صرف جهده لتعلم شتى العلوم الشرعية، واللغة العربية ودرس على بعض العلماء بها ممن كانت شهرتهم تسع الآفاق في بعض العلوم ومتمماتها فقضى سنوات يتعلم على

---

[76]- لقد كان مهووسا بالتنقيب عن المخطوطات، شغوفا بالارتحال في طلبها، واقتنائها، مهما بلغ ارتفاع سعر ثمنها، وقد قاده ذلك إلى الانتقال شخصيّاً إلى مجموعة من المناطق، فقصد مراكز إشعاعها، ومحاضرها البدوية، وخزانات أصحابها الخاصة والعائلية، علاوة على ذلك إرساله لعدد من البعثات والفرق التي تخدمه من هذه الناحية، وتكثيفه للمراسلات الموجهة طلبا لدور النشر، والمطابع، وملاكي هذه المخطوطات، إما لتمكينه من اقتنائها أو نسخها.

[77]- Abou el Farah et autres, *La présence marocaine en Afrique de l'ouest*, Publication de l'institut des études africaines, Rabat, 1997, p. 215

[78]- الملاحظ أن هذا اللقب يكتب بصيغتين متقاربتين، والواقع أننا لم نجد في سيرة الرجل معنى لذلك، إلا أن الراجح حسب اعتقادنا المتواضع هو أن المعرفة والاطلاع اللذان يتمتع بمهما هما وراء اللقب.

[79]- يمكن أن تنشق الكنية من أسماء الأماكن مثل: الأندلسي، الفاسي، والقرطبي، أو القبيلة أو العشيرة أو العائلة، وكان ذلك أمرا مألوفا في التراجم وخاصة في أوساط التجار والرحالة البعيدين عن بلدانهم.

[80]- أحمد بو لعراف التكني، إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، تحقيق: الهادي مبروك الدالي، سلسلة من التراث الثقافي المشترك فيما ما وراء الصحراء وشمالها، الشركة العامة للورق والطباعة، طرابلس، د.ت، ص 6

Shamil Jeppie, « History for Timbuktu: Aḥmad Bul'arāf », Archives, and the Place of the Past, History in Africa, Volume 38, 2011, P 401

[81]- أحمد بو لعراف، مرجع سبق ذكره، ص 6

Abou el Farah et autres, *La présence marocaine en Afrique de l'ouest*, op.cit, p. 163-165

يد الشيخ محمد القاضي الوادنوني، والشيخ المولود الحسين الشنقيطي، وغيرهم من العلماء،وعقب هذه المحطة قادته رحلته بعد ذلك إلى السنغال ثم بعدها إلى تومبكتو ليحط الرحال بها سنة 1904[82]التي كانت ملجأه الأخير ليمضي بها بقية حياته حتى وافته المنية[83]، حيث يقول في مخطوطه إزالة الريب والشك: "قد ساقني القدر إلى سكني بتنبكت وكنت قد سكنت مدة في شنقيط، ورأيت كثيرا من فضلاء أهلها".

وبرز بو لعراف كمفت تحال إليه المسائل الفقهية، إضافة إلى مساهمته في الحركة العلمية لتمبكتو حيث برز مدرسا في: مسجد سنكري، ومسجد سيد يحيى الشريف التاديسي، ومسجد جنغري بير،[84] ومن الذين تتلمذوا على يده نذكر: يحي بن محمد بن خطار الأرواني، ومحمد محمود الأرواني، وابنه محمد عبد الله أبو الأعراف، وأحمد بابير الأرواني[85]، ولم يكتفي بو لعراف بمهام التدريس والفتوى بل عكف على التأليف وله مؤلفات عديدة في مختلف الفروع الدينية والعلمية كالتفسير والفقه والتاريخ، منها ما هو مطبوع وأغلبها مخطوط، نورد فيما يلي بعضا منها على سبيل الذكر لا الحصر:

- شرح الوهاج على نظم السراج لابن سليم.
- منظومة العبقري في نظم سهو الأخضري.
- إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط.
- المباشر على ابن عاشر.
- نظم العشماوية لابن سليم.
- الهدايا والصلاة في مبطلات الصلاة.
- منفعة الإخوان في شعب الإيمان.
- تعليق على الرّسالة الميمونة للشيخ سيد المختار الكنتي.
- ريق الجنة في فوائد وكتاب مئة للشيخ سيد المختار الكنتي.
- حسن المقلات والأعمال في جمع وترتيب ابن متال.
- بستان أهل الدين والعرفان في شرح نظم منفعة الإخوان.
- نظم في الناسخ والمنسوخ وشعب الإيمان.
- جمع نوازل، محمد فال بن متالي التندغي.

---

[82]- تعد المراحل الأولى من حياة أحمد بو لعراف أقل المراحل توثيقا خاصة انتقاله من وادي نون إلى موريتانيا وإلى تومبكتو فيما بعد، ولنا أن نتساءل عن السبب وراء انتقاله إلى تومبكتو والذي يتجلى أساسا –حسب تحرياتنا– أمله في تحقيق أرباح أوفر من تلك التي يمكن أن يحققها في مكان أخر بمالي والرغبة في ارتقاء مكانة رفيعة بين التجار، وهو ما جعله يتخذ الكتاب سلعة تجارية خاصة كتب العلوم الشرعية واللغة العربية التي كانت الطلب متزايدا عليها بغرب إفريقيا خاصة من قبل مريدي الطرق الصوفية.

[83]- توفي رحمه الله تعالى في تومبكتو، 29 محرّم 1357ه الموافق17سبتمر 1955م، عن عمر ناهز 91 سنة ودفن في مقبرة سيد الوافي (الأمير الأرواني)، وقد رثاه العديد ممن عرفوا منزلته، من أعلام وشيوخ تلك الناحية وأطرافها.

[84]- أحمد بو لعراف، إزالة الريب، صص 6-8.

[85]- الحسان مولودي،« التأثير الثقافي لعلماء مغاربة على السودان الغربي أحمد بو لعراف التكني أنموذجا »، ضمن: **الصحراء في العلاقات المغربية الإفريقية**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2015، ص 127.

- جمع النوازل، محمد بن علي بن المختار العلوشي.
- جمع النوازل، عبد الله بن أحمد الحاج حمى لله الغلاّوي.

وتعتبر مؤلفات هذا العلامة النحرير والفقيه المبرز من أهم ينابيع العلم والمعرفة، ليذيع صيته في غرب وشمال إفريقيا، فكان له الفضل الكبير في الحياة العلمية لحاضرة مالي في شتى العلوم والمعارف، منشأ بها سنة 1907 خزانة تؤم جهوده وتصانيف أخرى لصفوة من العلماء وصلت حوالي: 9695 كتابا/مخطوطا[86]، والتي اعتبرت من أهم المكتبات بغرب إفريقيا.

2. جهوده في مد جسور التواصل بين ضفتي الصحراء

وبخصوص نشاطه التجاري تؤكد مراسلاته على أن الأنشطة التجارية التي مارسها أحمد متنوعة، شملت تجارة السكر والشاي والماشية، مع إعطاء أهمية خاصة لتجارة الكتب، وقد كون شبكة تجارية ضمت أخويه، يستقر أحدهما في ولاته والآخر في كاو، وكانت تربطهم علاقات تجارية مستمرة[87].

إضافة إلى علاقاته ببعض تجار الكتب أمثال أحمد العيساوي بنجلون المقيم بسان لوي السنغال، ومحمد بن المجوب المراكشي المقيم بكانو نيجيريا، وصاحب المكتبة الشرقية بالدار البيضاء محمد بن يحيى الصقلي، ومراسلاته مع العديد من دور النشر كدار الهلال المصرية والمنار التونسية ومطابع بالجزائر ومكتبة التوفيق ببيروت والمطبعة الأدبية بطنجة وتجار الكتب بفاس ومراكش من أجل التزود بالكتب[88].

وبالنظر إلى مجموع مراسلات بو لعراف حول نشاطه التجاري التي اطلعنا عليه أثناء عملية البحث والتنقيب، -لاحظنا- بأن طلبياته في ما يخص الكتب تنهل من مختلف مباحث العلوم الشرعية والعربية وحسب مكان كل تاجر إذ يطلب منه كتب علماء منطقته، مع إيلائها قدرا من الاهتمام من قبله حيث كان يحتفظ بنسخة من كل كتاب بمكتبته لإتاحته لعموم القراء[89]، وهو بذلك يساهم في إثراء الحياة الثقافية بتومبكتو ويؤرخ لتاريخ ترويج الكتاب بها منتصف القرن العشرين.

كما سخر حياته لخدمة العلم وأهله وإحياء الثقافة العربية الاسلامية بحواضر غرب إفريقيا وكانت ثقافته الموسوعية حاضرة في جميع رسائله حيث عمل على انتقاء واختيار كلمات الثناء على الشخص المرسل إليه ، تاركا وراءه إرثا أرشيفيا مهما عمل على جمعه منذ وصوله إلى تومبكتو التي اشتهر بين علمائها تدريسا وتأليفا.

---

[86]- نفس المرجع السابق، ص 128.

[87]- Abou el Farah et autres, *La présence marocaine en Afrique de l'ouest*, op. cit, p. 163-165

[88]- اطلعنا بالمكتبة الوطنية بالرباط على وثائق لأحمد بو لعراف عبارة عن مراسلات عددها 91 وثيقة كان يتوصل بها بو لعراف من التجار المغاربة المقيمين بالسنغال، ومالي ونيجيريا، ولبنان والدار البيضاء والرباط وفاس وطنجة ومراكش، وكذا المراسلات التي كان يوجهها بو لعراف إلى التجار المغاربة والعرب في مالي والسنغال والمغرب ولبنان، والوثائق، للمزيدحول الوثائق أنظر:

- Abou el Farah et autres, *La présence marocaine en Afrique de l'ouest*, op. cit, p.

- جائزة الحسن الثاني للوثائق، مركز الرباط، 1995 ميكروفيلم بالمكتبة الوطنية، الرباط.

- الجدول رقم 1.

[89]- إضافة إلى ما تم ذكره حول استنساخ أحمد بو لعراف لثلاث نسخ من الكتاب، وفي نظرنا فهذا النهج لايبتغي منه صاحبه إتاحة الكتاب للقراء فقط، بل طرحه كسلعة للبيع.

وبدأ هذا العمل الأرشيفي داخل دائرة ضيقة في بادئ الأمر كان يهتم بجهود ومصنفات علماء تومبكتو، حيث يقول في إحدى رسائله: "منذ أن أتيت لهذا البلد وأنا مشغوف بالتنقيب على مؤلفات أهلها مثل الشيخ سيد المختار وابنه الشيخ سيدي محمد وأهل فودي وغير ذلك من أهل البلد".

لتتسع دائرة مشروعه إلى جمع نصوص علماء من مختلف الأقطار العربية والإفريقية، حيث تظهر رسائله إلى المكتبات والعلماء ثقافته واهتمامه وتواضعه إذ لم يكن قارئ عاديا أو جامعا عن طريق الصدفة كما أنه لم يأت من عائلة علمية ليتباهى بنسبها العلمي، بل يحركه هاجسه المعرفي وثقافته الجامعة ووعيه بأهمية الحفاظ على ذخائر الكتب والرجوع لها في المستقبل والاستفادة منها لإشاعة الثقافة والمعرفة.

علاوة على ذلك كان حريصا دائما في رسائله[90] على التذكير بأهمية العلوم والمعارف خاصة تشجيعه وحثه على أهمية التأريخ لعلماء المنطقة حيث يقول في إحدى رسائله إلى الشيخ محمد المختار بن أحمد التيشيتي: "ولا بد أن تتحفنا بما قدرت عليه من أسماء العلماء ومصنفاتهم وقد أقترح عليك أن تجعل تأليفا في ذلك وتضيف له تاريخ بلدكم وما والاه إلى غير ذلك، فإن فن التاريخ في هذه البلاد مات ولا زال ميتا رحمه الله ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا ومن ورخ مومنا فكأنما أحياه ومن قرأ تاريخه فكأنما رءاه"، من خلال هذه الرسالة يتضح لأن بو لعراف كان يحث وينادي إلى الاهتمام بجمع المادة التاريخية وتدوينها، صيانة لها من الاندثار والضياع، مقدما وسائل لتسهيل التعامل معه وموضحا أنها وسيلة للحفاظ على تاريخ العلماء.

ولم يكن بو لعراف في منأى عن ذلك فقد بدأ مشروعا علميا سنة 1940م، جمع فيه تراجم علماء الصحراء والتكرور وشنقيط[91]، حيث يقول في إحدى رسائله: "إني اقتحمت بابا من أبواب الفضول وهو أني أردت جمع مجموع يشتمل على ذكر علماء التكرور وأهل الصحراء وأهل شنقيط وما والاهم".

واكتفى فيه صاحبه حسب نفس الرسالة بذكر المؤلفين فقط حيث يقول: "ولا أذكر إلا من له تأليف ولو كنت جمعت غير المؤلفين لكان أكثر بأضعاف مضاعفة لكن رأيت أن ذكر غير المؤلفين لا يفيد في المستقبل إلا من جهة ذكر الصالحين"، وقام بذكر مؤلفاتهم وتاريخ وفاتهم دون غيره حيث يقول: "واكتفيت بذكر مؤلفاتهم وتاريخ وفاتهم دون ذكر التراجم والمناقب تحرزا من الكذب الذي هو عادة المداحين والمترجمين إلا ناذرا مما حققته أو كانت فيه فائدة في المستقبل دينية أو دنيوية".

ونرى أن بو لعراف في كتابه إزالة الشك والريب والتفريط لم يعطي اهتماما كبيرا للحكام وهو ما يظهر من خلال تناوله لهم بشكل موجز خلافا للعلماء والفقهاء، كما أنه لم يناقش السلطة السياسية ولا إلى احتلال فرنسا لتمبكتو، كما أنه يطلعنا على أسعار السلع بها منذ وصوله إليها معتمدا على تجربته كتاجر، كما يصف الدين بها واستقطابها للعلماء والتبشيريين، وأخيرا يتحدث عن أنماط التدين الشعبي والعادات الغذائية وكذا جوانب وعادات الزواج بها.

---

[90]- تعكس الرسائل جوانب من نفسية كاتبها، وتشهد على شخصيته العلمية التي لها مكانتها ضمن علماء عصره، وهناك من الرسائل التي توصل بها تعترف له بذلك، كما كان يخاطب كل شخص بالأسلوب الذي يعلم أنه يتفق مع ثقافته، ويتجلى الجديد في رسائله بشكل خاص في توظيفه الرسالة كشكل توثيقي، وهذا ما أضفى على رسائله قيمة تاريخية، إلى جانب قيمتها الأدبية.

[91]- لم يخرج بو لعراف عن المألوف عند أسلافه من المؤرخين، ذلك أن فن التراجم كان قد نال عناية منذ عصر مبكر في العالم الإسلامي، لذلك سخر عدد من المغاربة أقلامهم لكتابة تراجم العلماء والصلحاء والمرابطين، وجاءت كتب التراجم في صور مختلفة، فمنها كتب الطبقات، وكتب الوفيات، وكتب المناقب، وكتب الأنساب.

والمرجح أن اهتمامه بالتاريخ نابع من اطلاعه على الحوليات التي كان يكتبها العلماء بغرب إفريقيا خاصة سيدي المختار الكنتي وأحمد بابا التمبكتي، وعبد الرحمن السعدي، وهو ما دفعه لكتابه مقالته في أهمية التاريخ.

لقد سخر بو لعراف جهوده ووقته وموارده في شراء ونسخ المخطوطات والكتب وكان يتكلف بجل مراحل استنساخها بدء من شراء الورق وثمن النسخ وعملية إرساله، وهو ما نجده في أغلب رسائله إلى الكتبيين أو العلماء وأحفادهم، حيث يقول في رسالته إلى محمد بن سيدي عمر بن سيدي علي الكنتي: "والحاصل أنا نطلب من كرمك وجودك وحسن سياستك أن تبادر لنا بنسخ كتاب الشيخ سيدي أحمد البكاي في الرد على العالم المراكشي محمد أكنسوس والكتاب يسمى فتح القدوس في جواب أبي عبد الله محمد أكنسوس وما صرفت على نسخه وثمن كاغطه أخبرنا به على عجل بواسطة إبراهيم بن البشير صاحب الابرة"، (وهذا إبراهيم بن البشير واحد من إزركيين كان خياطا في كاو).

لقد كانبو لعرافي دفع للنساخ ثمن النسخ ونفقات السفر لجمع ونسخ المخطوطات من أصحابها البعيدة أماكنهم، كوسيلة للحفاظ عليها ولفت الانتباه إليها وإلى مؤلفيها خاصة المغمورين منهم، كما كان يعمل في بعض الأحيان على نسخها بنفسه عبر استعارتها من أصحابها بتوجيهه لرسائل اقتراض إليهم وعند الانتهاء من نسخها أو طبعها يعيدها إلى أصحابها.

كما كانبو لعراف يرسل رسائله إلى مختلف أنحاء إفريقيا بحثا عن الكتاب مستغلا حماسته وشغفه وقدرته على التواصل مع العلماء وأحفادهم والثناء عليهم، وحثهم على ذكر ما لهم من تصانيف أباءهم وتعهده بإشاعتها بين الناس حيث يقول في إحدى رسائله التي أرسلها لحفيد الكنتي: "وأعلم إن شاء الله أنه إن حصل عندي كتاب الشيخ سيد البكاي (يقصد كتاب فتح القدوس في جواب أبي عبد الله محمد أكنسوس) سأرسله إلى موضع المطبعة ليطبع ويشيع في الناس، وكذلك ما رأيت من مؤلفات والدك ومكاتبه فأخبرنا به لنتفاهموا فيه بعد هذا فإنه ذكر لي أنها في غاية الحسن والإفادة".

ولم يكن عاشقا جامعا للكتب فقط، وإنما له تصانيف عديدة وتعاليق وردود على فتاوى حيث وجدنا له عدة رسائل يجيب فيها فقهاء وعلماء خاصة حينما يتعلق الأمر بالتجانية[92] وشيخها أحمد التجاني، وقد أخذ الطريقة التيجانية عن أحمد بن محمد بن الحافظ العلوي في شنقيط سنة 1319هـ حيث يقول: "وقد درست التيجانية وعرفت معتقداتها واشاراتها ومفهومها وكنت متعمقا أشد التعمق".

كما اهتم بجهود ومصنفات علماء تومبكتو، حيث يقول في إحدى رسائله: "منذ أن أتيت لهذا البلد وأنا مشغوف بالتنقيب على مؤلفات أهلها مثل الشيخ سيد المختار وابنه الشيخ سيدي محمد وأهل فودي وغير ذلك من أهل البلد".

ومن ثمة، فإنه يعتبر من بين الأعلام الذين أنعشوا المعرفة العربية والإسلامية في تلك الأحواز الإفريقية النائية، والذين كان سمتهم حسنا، وصنيع فعلهم محمودا، وأثرهم بارزا في تشجيع نشاط الحركة العلمية، وتوفير مصادرها الأساس المطلوبة.

[92]- استمدت هذه الطريقة هذا الاسم من مؤسسها الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد التجاني المتوفى سنة 1230هـ/1814م، والذي ينحدر من قبيلة تجانة المخاوي بالصحراء الشرقية التابعة حاليا للجزائر، أسس زاويته الأولى بالجزائر لكنه تعرض لمضايقة حكامها الأتراك، فانتقل إلى فاس، ورحب به السلطان المولى سليمان، وأهدى له دارا فعاش فيها إلى أن توفي، فأصبح قبلة لأتباع طريقته في المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.

وفي غياب فهرسة شاملة لمكتبة بو لعراف وخاصة ما ألفه فقد استطعنا أن نصل إلى حوالي مائة وخمسين مادة مكتوبة منسوبة له، والتي جاءت بعد سنوات من جهوده في الجمع ومجالسة العلماء خاصة خلال فترة تواجده بشنجيط ونسخ مؤلفاتهم.

ومن ثمة، فإن أحمد بو لعراف أراد أن ينهي مسيرته في التأليف من خلال مساهمته في التوثيق للعلماء المؤلفين جاعلا من سيرهم الذاتية موضوعا لتأليفه، ليبقى مصدرا من مصادر الكتابة التاريخية بغرب إفريقيا، وجسرا بين فترات ومراحل تاريخها، وتبقى رسائله مصدر أساسي لكتابة تاريخ ترويج الكتاب خلال النصف الأول من القرن العشرين وكيف نشأت المكتبات الخاصة، وهي قضايا لا تزال تحتاج إلى مزيد من البحث والتفسير.

كما أنها مسألة تستحق منا إعطائها أهميتها من البحث فبعد أن كان حماة هذا الإرث حريصون على ترويجه نجد اليوم أحفادهم يحتفظون عليها داخل أماكن تفتقد للشروط اللازمة للحفاظ على المخطوطات من التلف والضياع.

خاتمـــــــة

لقد حاولنا -قدر الإمكان- أن نقف على مظاهر وأثار الحضور التجاري التكني بغرب إفريقيا، محاولين التعريف بمسارات هذه الشريحة التي ظل موضوعها مغمورا ولم يتعرض لها المؤرخون إلا بصفة عرضية أثناء دراستهم لأعيان المخزن ومبادلاتهم التجارية.

وقد دفعنا، الهم الدراسي إلى تتبع مسار متفرد لتاجر وعالم أثر بشكل كبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لحاضرة مالي، وخلق نمط تجاريا جديدا ساعده على بلوغ صيت في تعاطي التجارة والعلم والاغتراب في سبيلهما، ليبقى بحق نموذجا يحتاج مزيدا من الدراسة والبحث.

وفي انتظار قيام دراسات وأبحاث مستقبلية حول هذه الشخصية، فإننا ونحن نسدل الستار عن هذه الدراسة المتواضعة نأمل صادقين أن يكون جهدنا هذا قد ساهم في لفت الانتباه وإلقاء الضوء على بعض مناطق العتمة حول موضوع من الأهمية بمكان، ومجال لا يزال مغمورا لدى الباحثين.

الجدول رقم 1: الشبكة التجارية لأحمد بولعراف

الدولة	المنطقة	المكتبة/العائلة
مالي	باماكو	أحمد القاري
		محمد العراقي
	النوارة	محمد بن عمر
	تنبكت	أحمد بابا بن أبي العباس الحسني
		عائلة سنكوري
		محمد محمود بن الشيخ الأرواني
		ماما حيدارا
		عائلة كنتة
	كيدال	الشيخ باي ابن سيد أعمر
		عال بن أحمد بن محمد العربي
موريتانيا	ولاتة	محمد يحيى بن سليم الولاتي
		المروان بن أحمد الولاتي
	بوتلميت	محمد الأمين بن باريك الولاتي
	الحوض الشرقي	الشيخ التراد بن العباس بن الشيخ الحضرامي
		محمد المختار بن أحمد بن انبال التيشيتي
	أطار	مولاي علي بن اليزيد بن مولاي علي
نيجيريا	صُكُتُو	محمد بن المحجوب المراكشي

الجزائر	الجزائر العاصمة	المطبعة الثعالبية
		المطبعة الأدبية
		رودوسي قدور بن مراد التركي
	وهران	محمد السعيد الزاهريالوهراني
	قسنطينة	أحمد بوشمال
السنغال	ريفيسك	أحمد الهاروشي
المغرب	فاس	أحمد بن عبد الكريم
		محمد بن عبد السلام
		أحمد لم عرف برادة
		مكتبة القادري
	كلميم	اعل بن البشير بولحيلت
	مراكش	عبد القادر القادري
	الرباط	المكتبة الأهلية
		المصطفى بن عبد الله
تونس	تونس	مكتبة المنار
		المكتبة العتيقة
		الشيخ علي العسلي
		المكتبة الإسلامية
لبنان	بيروت	مكتبة التوفيق

		توفيق كبوش
		مكتبة صادر
		سليم بن إبراهيم صادر
مصر	القاهرة	مكتبة زيدان

المصدر: وثائق ومراسلات أحمد بو لعراف.

الجدول رقم 2: النساخ الذين يعملون لدى بولعراف

الناسخ	خطه
يحيى بنمحمد خطار الأرواني	مغربي
محمد الطاهر بن شرف بن بابا شرف	صحراوي
عبد الرحمن بن سيد بن عثمان التنبكتي	سوداني
المروان بن أحمد الولاتي	صحراوي
محمد الأمين بن باريك الولاتي	صحراوي
جدونا بن المرابط الولاتي	صحراوي
محمد بن الحبيب النعمان	سوداني
عيسى بن محمد المولود	سوقي
محمد عبد الله بن أحمد بعراف	مغربي
سيدي الشيخ الفولاني	سوداني

عبد الله بن عمر السوداني	سوداني

المصدر: وثائق ومراسلات أحمد بو لعراف.

ببليوغرافيا

ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، المطبعة التجارية، مصر، 1964.

أكمير، عبد الواحد، « مساهمة مغاربة كلميم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتنبكتو » ، ضمن **واحات وادي نون بوابة الصحراء المغربية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، الطبعة الأولى، 1999.

البكري، أبو عبيد الله، **المسالك والممالك**، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003.

بولعراف، أحمد، **إزالة الشك الريب والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط**، تحقيق: الهادي مبروك الدالي، سلسلة من التراث الثقافي المشترك فيما ما وراء الصحراء وشمالها، الشركة العامة للورق والطباعة، طرابلس، د. ت.

دندش، عصمت عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا**، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1988.

السوسي، محمد المختار، **إيليغ قديما وحديثا**، المطبعة الملكية، الرباط، 1966.

الصافي، محمد، **واد نون خلال القرن 19 مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من خلال وثائق محلية**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2016.

المدن، عبد الهادي، **التجارة بوادي نون في القرن التاسع عشر**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، 2015-2016.

المقري، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، الجزء 5، 2011.

مولودي، الحسان، «التأثير الثقافي لعلماء مغاربة على السودان الغربي أحمد بولعراف التكني أنموذجا » ، ضمن: **الصحراء في العلاقات المغربية الإفريقية**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2015.

ناعمي، مصطفى، «مادة أهل بركة»، معلمة المغرب، ج 4، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1991.

الهلال، أحمد مولود ولد أيده، **مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2014.

جائزة الحسن الثاني للوثائق، مركز الرباط، 1995 ميكروفيلم بالمكتبة الوطنية الرباط.

Abou el Farah et autres, **La présence marocaine en Afrique de l'ouest**, Publication de l'institut des études africaines, Rabat, 1997.

Barbier Maurice, *Voyages et Explorations au Sahara Occidental au XIX siècle*, L'Harmattan, Paris, 1985.
Douls Camille, « Voyage d'exploration à travers le Sahara occidental et sud marocain », *Bulletin de la Société de Géographie*, Tome IX 3e trimestre, Paris, 1888.
Ghislaine Lydon, *On Trans-Saharan Trails Islamic Law*, *Trade Networks*, *and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth-Century Western Africa*, Leiden, Boston, Brill, 2012.
Mohammed Hassan Mohammed, *Between caravan and sultan*, *the Bayruk of southern Morocco*, *a study in history and identity*, Boston, Brill, 2012

Monteil Charles, *Une cité soudanaise Djenné*, *métropole du delta central du Niger*, Société d'Editions Géographiques, Maritimes et Coloniales, Paris, 1932.
Shamil Jeppie, « A Timbuktu bibliophile between the Mediterranean and the Sahel: Ahmad Bul'arāf and the circulation of books in the first half of the twentiethcentury », The Journal of NorthAfricanStudies, Vol 20, N° 1, PP 65-77
Shamil Jeppie, « History for Timbuktu: Aḥmad Bul'arāf », *Archives*, *and the Place of the Past*, *History in Africa*, Volume 38, 2011.